جوله أثرية في سوريه
من اللطامنه وعبر آلاف السنين

بقلم : الدكتور عفيف البهنسي

استقر الانسان على هذه الارض منذ آلاف السنين ، وقد ترك لنا آثاره الاولى في مدينة حماة وفي اللطامنة وهي المصاطب الاولى لنهر العاصي التي غـزت الـوادي وحتى الساحـل بالتوضعات السكنية المتتابعة والآخذة بالرقي ، فلقد كان ثمة كثافة سكانية عالية في تلك المنطقة تركت آثارا واضحة اكتشفت خلال السنوات الاخيرة(١) .

ويبدو أن الانسان الاول إستطاب الحياة في غابات الصنوبر والبلوط التي كانت تكتنف وادي العاصي ، فاستقر فيها في العصور الحجرية الاولى في العهد الشيلي والاشولي واستعان بأدوات عثر على بعضها هي مكاشط وفؤوس يدوية ورقاق صوانية .

وقد عايش الانسان في ذلك الوقت حيوانات كبيرة ومتوسطة الحجم وبعضها ضخم ، كالفيل ووحيد القرن وكالغزلان والوعول والثيران والجمال وربمـا الحصان ، وكـان الانسان في العصر الآشولي يستخدم لحمها على ما يبدو لغذائه . وكانت الامطار غزيرة والاشجار كثيفة والمراعي موفرة ، وفي الشتاء كان الصقيع شديدا يدفع الناس الى الالتجاء الى المغاور .

واذا انتقلنا الى العصر الحجري المتـوسط (الميزوليتيـك) ، والعصر الحجـري الحـديث (النيوليتيك) فاننا نرى في هذا القطر أقدم توضع سكني واضح في العالم ، ولقد تم اكتشاف ذلك بمناسبة انقاذ الآثار في موقع سد الفرات .

لقد كشفت البعثات العلمية في موقع تـل المريبط الذي يقع على الفرات الى الغرب من مدينة الطبقة ـ الثورة عن مستوطن أقام فيه الانسان منذ أحد عشر ألف عام ، وهو أقدم موطن مستقر معروف حتى الآن(٢) .

ولقد سعى الانسان القديم الذي كان يجهل الزراعة والرعي، الى ضفاف الانهار لكي يصطـاد غذاءه منها الى جانب ما يصطاده من الثور البري والحمار الوحشي والغزال . وكان ذلك موفورا في تلك المنطقة ، فقد كشفت الحفريات عن كميات كبيرة من عظام هذه الحيوانات .

وكانت أدواته عبارة عن مقاطع صوانيـة يقطف بها النباتات البرية التي لم يكن يزرعها ، مثل القمح والشعير والعدس حيث عثر منها عـلى حبوب متفحمة .

وعاش هذا الانسان في بيوت مؤلفة من غرف واسعة دائرية ، ومادة انشاء هذه البيوت كانت الطين والخشب المشذب بقدوم من الحجر ، أمـا تغطية هذه الغرف فكانت من الاغصان أو الجص أو من جلود الحيوانات .

وبعد ألف عام منذ ذلك التاريخ ، أصبحت البيوت أكثر اتساعا ، وأصبحت الغرف ملونـة ببعض التزيينات البدائية بلون أحمر وأسود . ويبدو أن الانسان في ذلك الوقت ، استطاع أن يكتشف الطين المشوي ويستعملة بدلالة العثور على أواني صغيرة من الطين المشوي ، كما عثر على بعض التماثيل من الحجر والطين لامرأة عاريـة تضع يديها فوق ثدييها ، وهي تمثل ولا شك ربة

(١) J.D. Clark: Excavation at the middle acheulian site at Latamné, A.A.S., Vol. 16.

(٢) J. Cauvin: Tell Moureibet, dans "Antiquités de l'Euphrate" 1974.

الخصب التي كانت معبودة في المجتمعات الزراعية في تلك المنطقة (لوحة رقم ٩) وعثر أيضا على قواقع وعظام وأحجار كانت تستعمل كحلي لزينة المرأة • كما عثر على رؤوس رماح من الصوان وسكاكين من الاوبسيديين يدل على مبادلات تجارية مع الشمال •

وفي (أبي هريرة) التي لا تبعد كثيرا عن المريبط ، وجدت آثار مستوطنات ترجع الى نفس العهد أي الى الالف التاسع قبل الميلاد • ووجدت فيه نفس مظاهر الحياة المتقدمة بالاضافة الى أن البيوت كانت مستطيلة وهي من اللبن ، وان الموتى كانوا يدفنون وفق طقوس ، منها أن الميت يدفن في أرض البيت أو في الباحة الخارجية ، ثم ترفع الهياكل من مكانها وتنفصل عنها الجماجم لكي تجمع في مدفن آخر ، وكان السكان يعتقدون بعودة الحياة أو بوجود بعث جديد(٣) •

وينتشر السكان على ضفاف الفرات يتقدمون فيه نحو الحضارة •

ولم يكن يدر بخلد مجموعة من المهاجرين الزاحفين من الرافدين أو من سكان المنطقة الاصليين أنهم سيبنون على ضفاف الفرات في المنطقة التي تسمى اليوم (تل الحريري) والتي تقع على بعد عشر كيلو مترات غربي البوكمال ، حضارة واسعة نسبت منذ الالف الثالث قبل الميلاد الى مدينة اسمها (ماري) •(٤)

ولقد كان من حسن الحظ أن يعاد اكتشاف هذه المدينة صدفة في عام ١٩٣٣ ، عندما كان أحد الفلاحين البدو يسعى للبحث عن قطعة من الحجر يجعلها شاهدة قبر أحد ذويه ، فاذا به يعثر على تمثال منحوت مفقود الرأس فيعتقد للوهلة الاولى أنه أمام شيطان فلم يلبث أن ينتقل خبر هذا الكشف الى المسؤولين في البوكمال الذين يتصلون بسلطة الانتداب التي تعلم بدورها باريس ، ويكون من نصيب أحد محافظي متحف اللوفر الشباب وهو (أندره بارو) أن يوفد للاطلاع على هذا التمثال فيرى منه مفتاح تلك المدينة العظيمة التي سبق أن ذكر اسمها في كثير من الكتابات المكتشفة هنا وهناك • ويقوم بأسبار تؤكد له أن تل الحريري ما هو الا مدينة ماري ذاتها •

وتستمر الحفريات المنتظمة حتى اليوم في هذا الموقع الهام الذي يكشف عن سويات وطبقات لمنشآت مختلفة ، الشوارع فيها فوق الشوارع والقصور فوق القصور والمعابد فوق المعابد ، انها مجموعة من الحضارات المتوضعة فوق بعضها ، أولها حضارة ترجع الى عام (٣٠٠٠) قبل الميلاد ، تم الكشف عن مظاهرها في ذروتها وفي حضيضها ، ذلك أن الحرب التي أتت على هذه المدينة كانت قد خلفت آثار الحرائق والخرائب والنهب ، وعلى ذلك فان الحفريات كشف عن آثار من تماثيل وتحف تكشف عن ذروات هذه المدينة التي تبهر الاثريين بل جميع من يزور متاحف القطر مطلعا على بعض هذه اللقى الخارقة التي ترجع الى بداية مدنيات الانسان على هذه الارض • والتي تدفع الغرب على لسان بارو نفسه لكي يقول : «لقد صدق القول القديم الذي يؤكد أن الشرق قد جاء الى الغرب أو أنه أتى بالنور الى الغرب Ex Oriente Lux » •

ولقد أغنت آلاف الالواح الطينية معرفتنا عن التاريخ القديم وأبانت عن أن بلاد الرافدين كانت كمصر أقدم موطن للحضارة ، وكانت ماري قد احتلت مكان الصدارة في تاريخ الرافدين •

ويمكننا أن نقسم تاريخ ماري الى حقبتين أساسيتين ، الاولى تبدأ من الالف الثالث قبل قبل الميلاد وحتى بداية الالف الثاني قبل الميلاد • وهي الفترة الواقعة قبل العهد الصارغوني والحقبة الثانية تنتهي عام ١٧٥٠ ق•م •

ولقد كان المنقبون في كل مرة يعتقدون فيها أنهم أدركوا الارض العذراء التي تنتهي عندها

(٣) A.M.T. Moore: Tell Abou Houreira, dans "Antiquités de l'Euphrate" 1974.

(٤) A. Parrot: Mari: une ville fabuleuse, Sumer, Gallimard.

الطبقات القديمة ، كانوا يفاجأون بسوية جديدة تكشف عن حقبة كاملة (لوحة رقم ١٠ ــ ١) ٠ ففي عام ١٩٣٥ اكتشف قصر يرجع الى الالف الثاني ، وفي عام ١٩٦٤ اكتشف تحته قصر يرجع الى العهد قبل الصارغوني أي من ٢٧٠٠ ق٠م ــ ٢٤٥٠ ، ثم تكتشف سوية ترجع الى عهد نينوى الخامس أي الى الالف الرابع ٠ وفي العصر قبل الصارغوني عثر على معبد شماش ومعبد داغان ومعبد عشتار ومعبد ثي‌ثي زازا ٠

أما في الحقبة الثانية فلقد عثر على القصر الكبير الذي تهدم شر تهديم بعد حرب طاحنة شنها حمورابي عام ١٧٥٠ ق٠م على هذه المدينة وهذا القصر وقضى على خصمه العنيد آنذاك زيميري ليم ملك ماري ولم تعد المدينة الى أهميتها ومجدها الذي وصلت اليه على يد هذا الملك ، فمن القصر الكبير هذا ، كان زيميري ليم يسيطر على جزء كبير من الشرق الاوسط ، وبين يديه كان مصير كثير من الشعوب ، الى أن احتلها البابليون ٠

ثم أعيد لماري بعض أهميتها عندما استعملت من قبل الآشوريين كمركز لحماية الطريق التجاري الممتد من (الشمس المشرقة) أي الخليج العربي ، والى (الشمس الغاربة) أي البحر المتوسط ، وبعد ذلك أخذت ماري تسقط شيئا فشيئا في هاوية العدم ٠

ولقد عثر أثناء التنقيب على عدد يزيد عن ثلاثين ألف رقيم مكتوب بالمسمارية وباللغة الاكادية ، كما عثر على تماثيل مختلفة من الطين والحجر ، منها تمثال رائع بجماله لمغنية المعبد (أورنينا) (لوحة رقم ١٠ ــ ٢) ، الذي عثر عليه في معبد ثي‌ثي زازا وتمثال لامغي ماري ملك ماري وتمثال العرافة وتمثال عشتار وحامل العجل والطحان ايدي ناروم ، وايكو شاماغان التي عثر عليها في معبد عشتار ٠ ومن أهم مكتشفات قصر زيميري ليم والتي تعود الى الالف الثاني تمثال ربة الينبوع وتمثال ايشتوب ايلوم الكبيرين ٠ ثم تمثال ايدي ايلوم مقطوع الرأس ٠ كما عثر في فناء القصر على بقايا لوح مزين وملون يمثل مشهد احتفال (التقليد) وهو يمثل في بعض أقسامه الملك ، زيميري ليم بوقفته الدينية أمام الآلهة عشتارات الهة الحرب وهي بكامل لباسها منتصبة فوق رمزها الاسد ، وفي أقسام أخرى ترى آلهتا الينبوع وأشجار نخيل ٠ وثمة لوح آخر يمثل مشهد (التقدمة) وهو مؤلف من خمسة صفوف من الصور لم يبق منها الا جزء يبدو فيه الالهة عشتارات وبعض الجنود ، والملك يقوم بالتقدمة ٠

ولقد عاصرت مدينة ماري ، مدينة ايبلا العمورية أيضا ، ولقد كان اكتشاف مدينة ايبلا حدثا عظيما تم خلال الاعوام الخالية ٠ فمنذ عام ١٩٦٤ كانت بعثة ايطالية تبحث في موقع تل مرديخ الذي يقع جنوبي حلب وقرب الطريق العام بين حلب ودمشق ، وقد انهت حتى الآن اثنى عشر موسما علميا ، وتأكد لها مؤخرا أن هذا الموقع هو مدينة ايبلا التي كانت مزدهرة الى جانب ماري ويارموتي التي يعتقد أنها اللاذقية الحالية ٠ ولم يكن يعرف موقع ايبلا قبلا ٠ ولقد كان اسم هذه المدن الثلاثة قد ورد في الرقم الفخارية التي عثر عليها في نيبور في العراق والتي ترجع الى عهد صارغون ٢٣٥٠ ق٠م ، كما ورد اسمها في كتابات من عهد نارام سين حفيد صارغون وغوديا ملك لاغاش السومرية ٠(٥)

وخلال عام ١٩٧٥ تم اكتشاف ذو أهمية غير عادية لتاريخ الحضارة ٠ ففي قاعة استقبال القصر الملكي ، والذي يعود تاريخه للنصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد ، تم اكتشاف حجرتين للمحفوظات تحوي آلاف الرقم (اللوحات) المسمارية ، والتي تعتبر من أقدم وثائق الدولة (لوحة رقم ١١ ــ ١) في أكبر وأقدم المدن المعروفة في العالم ٠ وان نصوصها ، المكتوبة باللغة الاموية والكنعانية القديمة وبالسومرية وجدت على حالتها الاصلية ، ومحفوظة كما كانت سابقا ، منضدة على رفوف خشبية ، كما هو متبع في مكتباتنا اليوم(٦) ٠

(٥) انظر ابحاث باولوماتيه في الحوليات الاثرية المجلدات : ١٥ ــ ١٧ ــ ١٨ ــ ٢٠ ٠

(٦) انظر بحث باولو ماتيه في الحوليات الاثرية المجلد (٢٦) ٠

والقراءة الاولية لهذه النصوص ، قد أوضحت أن هذه الوثائق تحوي قوائم كبير للتجارة لايبلا القديمة ، وأوامر ملكية حول المسائل القانونية للدولة ، وتقارير رسمية مقدمة الى ملك ايبلا عن المعارك العسكرية وقوائم بالغرامات الحربية التي دفعتها المدن الخاضعة ، وكذلك معاهدات دولية جرت مع الدول الكبرى التي وجدت في والالف الثالث قبل الميلاد ٠

والى جانب وثائق الدولة ، وجدت أعداد كبيرة من النصوص اللغوية ، ومن بينها ، يمكن أن نرى أقدم المعاجم بلغتين ، والتي أعطتنا سلسلة من الكلمات السومرية ـ لغة جنوب ما بين النهرين ـ واللغة الكنعانية ـ لغة سورية حينذاك ٠ وهي ذات أهمية خاصة لمعرفة قواعد التعليم في الالف الثالث قبل الميلاد ، وهي في نفس الوقت كتب تعليم وتمارين لغوية وقعها الطلاب وشاهدها معلموهم ومديروهم ٠

وفي ذات المكتبة الملكية ، اكتشفت بعض النصوص الادبية والدينية ، وبعضها سجل عليه الاساطير والملاحم السومرية ، واحداها تروي ملحمة البطل الشهير (غلغاميش) المعروف فيما بين النهرين ٠

ان لاكتشاف الارشيف المركزي للقصر في ايبلا أهمية بالغة جدا للتاريخ ٠ وان الوثائق الجديدة تبرز ايبلا ، في حوالي ٢٣٠٠ قبل الميلاد ، كمركز لأهم دولة في الشرق الادنى ، فقد كانت تسيطر على مناطق واسعة جدا من حوض البحر الابيض المتوسط ، وحتى بلاد الرافدين وقد أظهرت النصوص سلالة أحد ملوك ايبلا ، بين ٢٣٥٠ و ١٢٥٠ قبل الميلاد ، والتي ضاع ذكرها في خضم العداوات مع ملوك سلالة آكاد الشهيرين في بلاد النهرين ٠

ان صفحة جديدة ، كانت مجهولة ، قد فتحت أمامنا لاول مرة في القطر العربي السوري ، بحيث أن هذا القطر لعب في الالف الثالث قبل الميلاد الدور الاول في تاريخ الشرق الادنى ٠ وان بدايات حضارته وثقافاته ، والتي تشهد عليه فنونه وطرازه الهندسي ، وتطوره الادبي ، تبرز في الوقت نفسه ، ان ايبلا لعبت دورا رئيسيا الى جانب مصر وبلاد الرافدين(٧) ٠

ومنذ عام ١٩٢٩ اكتشفت مدينة اوغاريت في موقع رأس الشمرة شمالي اللاذقية وهي أعظم مستوطن على البحر الابيض المتوسط خلال الالف الثاني قبل الميلاد ، وكان ذلك بعد أن اكتشف فلاح يحرث أرضه حجرا ، ما أن نزعه حتى بدى له نفق يؤدي الى قبر ، ووصل الخبراء الى العلماء فقام منذئذ العالم كلود شيفر بالتنقيب ، الذي ما زال مستمرا حتى يومنا هذا ٠(٨)

كان هذا الموقع مأهولا منذ العصر الحجري ، ولكن المدينة ازدهرت منذ أن أقام فيها الكنعانيون وهم عرب ينطقون بلغة العرب القديمة ، ثم وصلت المدينة قمة ازدهارها في منتصف الالف الثاني بعد أن نشطت في مجال التجارة ٠ ثم انتهت مع نهاية الالف الثاني اذ غزتها شعوب البحر وأتت عليها ٠

ان أهم المكتشفات التي ترجع الى ذروة حضارتها هي القصر الملكي ، وهو المدينة الرسمية المنظمة وفق أدق الاساليب ، ولم يكن لهذا القصر مثيل قط ٠ والى جانب القصر ، كان معبد الاله (بل) والاله (داغان) وهي من أهم الآلهة الكنعانية ٠

ولقد عثر أثناء التنقيبات على نماذج من الصناعات الفخارية والبرونزية والعاجية ومثالها اللوح العاجي المستطيل الذي كان يؤلف جزء من عرش ملوك مدينة اوغاريت ، نقشت عليه من الوجهين مشاهد من الحياة اليومية والسياسية والعسكرية والاجتماعية ، بدقة خارقة ولكن

(٧) انظر النشرة التي صدرت بمناسبة هذه الحفرية لباولوماتيه ٠

(٨) انظر مجلدات Ugaritica التي تتضمن ابحاثا وترجمة للكتابة الاوغاريتية ، وهي باشراف الاستاذ شيفر C. Schaeffer

بأسلوب مصري · ومثال آخر الرأس العاجي الذائع الصيت (لوحة رقم ١١ ــ ٢) ، وكلاهما محفوظ في متحف دمشق ·

ولقد عثر في اوغاريت على رقم فخارية مكتوبة بلغات المنطقة وخاصة الكنعانية ، ولكن أعظم هذه الرقم هو الرقيم الذي نقشت عليه الابجدية وهي أقدم أبجدية في التاريخ (لوحة رقم ١١ ــ ٣) فلم تكن الكلمات مؤلفة من حروف قبل ذلك التاريخ ، وهذه الابجدية مؤلفة من ثلاثين حرفا مرتبة حسب الابجدية المعاصرة(٩) ·

واذا كان لهذه الابجدية من أهمية فهي تبدو بصورة أوضح عندما نقشت على ورق البردي فتحولت الاحرف الى شكل لين كما بدت في نقوش قبر أحيرام ، وكانت هذه الابجدية أساسا للابجدية السامية ــ العربية والابجدية الاغريقية ــ اللاتينية بوقت معا ·(٩)

واذا كان هجران المواقع الاثرية مثل ماري وأوغاريت وايبلا قد فسح المجال للتنقيب والكشف عن ماضي هذه المدن فان كثيرا من المدن السورية وخاصة دمشق وحلب ما زالتا تختزن في باطنهما أسرار ماض عريق معاصر او سابق لحضارة تلك المدن ·

وقد تكون حلب أقدم مدينة في العالم وجدت وما زالت قائمة ومزدهرة · فلقد ورد ذكرها منذ منتصف الالف الثالث وكان اسمها حلبا او حلبابا ، ثم أصبحت عاصمة مملكة يمحاض الامورية وكان لها دور في معاضدة حمورابي وفي عقد معاهدات مع بابل وايبلا ، ولقد خضعت حلب الى الحثيين مرة وللمصريين مرة ثم صارت مملكة آرامية صغيرة ثم خضعت للبابليين والاخمينيين ثم الى الاسكندر المكدوني ، وأصبح اسمها (بيروه) ثم فتحها الرومان والبيزنطيون واستعادها العرب المسلمون عام ٦٣٦م ·(١٠) ·

وآثار حلب كالقلعة (لوحة رقم ١٢ ــ ١) والجامع الكبير والحلوية والبيمارستانات والخانات والاسواق ، تجعل من مدينة حلب القديمة تحفة تاريخية لامثيل لها ·

أما دمشق واسمها القديم دارميسك أي الارض المسقية باللغة الآرامية · فهي المدينة التي استمرت زاهرة خلال أربعين قرنا وما زالت ، فلقد عرفت منذ الالف الثالث يوم احتلتها مصر وكانت موطن العموريين ثم اصبحت مملكة آرامية وحاضرة رومانية ومسيحية ثم عاصمة لأكبر دولة اسلامية في التاريخ وهي الدولة الاموية (لوحة رقم ١٢ ــ ٢) ·

وفي دمشق آثار من العصر الآرامي والروماني وما زال الشارع الطويل ومدخل المدينة والسور وآثار معبد جوبيتر قائمة ، تذكر بازدهار المدينة في ذلك العهد ·

وتبقى كنيسة القديس يوحنا وكنيسة القديس حنانيا وبوابة بولس من الآثار المسيحية القديمة · أما الاثار الاسلامية فانها تملأ المدينة كالمساجد والمدارس والبيمرستانات والخانات والتكايا وهي على حال جيدة وتخضع لعناية مشددة(١١) ·

عندما انتصر الاسكندر المكدوني على دارا ملك الفرس في موقعه ايسوس ، كان ذلك بداية للسيطرة الاغريقية ثم الرومانية على سورية وغيرها من الدول الشرقية ·

وعندما خلف سيلوقوس نيكاتور الاسكندر

---

(٩) Parrot, Mouscati, Chéhab: Les Phéniciens.

(١٠) من اهم المراجع عن حلب

S. Saouaf: Alep dans sa plus ancienne histoire.

G. Herzfeld: Inscriptions et monuments d'Alep.

J. Sauvaget: Alep.

د· اسعد طلس : الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ·

(١١) من المراجع عن دمشق :

ابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ : تاريخ دمشق ·

محمد كرد علي ــ خطط الشام ١٩٢٥

نقولا زيادة ــ دمشق في عصر المماليك ١٩٦٦ ·

عبد القادر ريحاوى ــ دمشق ١٩٦٩ ·

J. Sauvaget: Le plan antique de Damas, Syria, XXVI.

J. Sauvaget: Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, R.E.I Islamique, 1934.

J. Sauvaget: Les monuments historiques de Damas, 1932.

على سورية أقام هذا مدينة الاسكندرونة تكريما لقائده الراحل ، كما أنشأ انطاكية نسبة لابيه انطوخيوس واللاذقية نسبة الى أمه لاوديس ومدينة افاميا نسبة الى زوجة أباميا ومدينة دورا اوروبس نسبة الى المدينة التي ولد فيها . وما زالت هذه المدن قائمة حتى اليوم ولكنها فيما عدا انطاكية لم تحتفظ من آثار السلوقيين الا بالاسم ، ولكنها وقد خضعت للرومان على يد بومبة مع غيرها من المقاطعات السورية بقيت انطاكية عاصمة لها ، ولكن الحكام استمروا من العرب في الرها وعنجر وحمص وفي بصرى وتدمر وأفاميا (لوحة رقم ١٣ ــ ١) .

ولقد تزوج سبتيم سيفير وهو قائد روماني من ليبيا ويتكلم البونيقية ، من جوليا دومنة الحمصية التي تتكلم الآرامية شقيقة البونيقية . وكان من ثمار هذا الزواج ان أصبح سبتيم امبراطورا وانتقلت حاشية الملكة من حمص لكي يصبح تأثير سورية في الحكم والثقافة بشكل جلي وخطير ، حتى أن الشاعر جوفينيال قال «لقد أصبح نهر العاصي يصب في التيبر»(١٢) .

وفي ذلك الوقت حظيت تدمر بالمزيد من عناية روما . وحازت في عهد كاراكالا عام ١٨٣ على لقب «مستعمرة رومانية» أي أنها أصبحت معادلة لروما وغير مجبرة على دفع الضرائب لها .

ان الحديث عن تدمر يأتي في بداية الاحاديث عن المجتمعات العربية المتحضرة فلقد حكم هذه المدينة وما حولها قبائل عربية كانت تتكلم العربية والآرامية ، ولقد كشفت التنقيبات عن أسماء السلالة الحاكمة وكان من أشهرها اذينة الذي خلفته بعد مقتله زوجة الزباء كوصية على ابنها وهب اللات .

وخلال القرن الثاني والثالث وصلت تدمر الى أقصى أمجادها فلقد توسعت الزباء حتى وصلت الى الاناضول والشام ومصر . وكانت تدمر حاضرة ضخمة لها تلك المنشآت التي ما زالت شاهدة حتى اليوم على ازدهارها . ولعل معبد بل وهو أكبر معبد عرف حتى ذلك الوقت يبقى الدليل القاطع على تقدم المدينة وانتشار سيطرتها . كما أن الشارع المستقيم (لوحة رقم ١٣ ــ ٢) بما اشتمل عليه من مخازن تجارية ومصلبة (تترابيل) ضخمة ، وما جاوره من ساحة (فوروم) ومسرح ، اضافة الى السور الضخم وما تلاه من قبور ذات أبراج أو قبور تحت الارض ، دليل ازدهار اقتصادي واجتماعي رفيع المستوى .(١٣)

ابان ازدهار تدمر كانت تحكم روما اسرة سورية هي سيفر ، عندما انتهى حكمها لم يلبث أن أعلن فيليب العربي المولود في شهبا امبراطورا سوريا على الامبراطورية كلها . فعاد العطف من جديد على هذا القطر ، وتجلى ذلك في تشييد شبها (فيليبو بوليس) وفي دعم مدينة بصرى . وما زالت في شبها ، الطريقات المبلطة والمخازن والحمامات وأقنية المياه والمسرح والمصلبة والمعبد ومدفن فيليب (الذي لم يدفن فيه) قائمة حتى اليوم .

أما بصري فانها مدينة عريقة أيضا كانت موطن العرب وخاصة الانباط ومنذ عام ١٠٦ ميلادي أصبحت بصري مدينة رومانية هامة ، منحت في عهد اسكندر سيفر لقب «أمهات المدن» وأصبحت من المراكز الهامة المتميزة بالعمران بالعمران والمنشآت الضخمة وكان مركزها التجاري سبب ازدهارها .(١٤)

ومن أهم ما تبقى من بصري في العهد الروماني المسرح (لوحة رقم ١٣ ــ ٣) وهو الوحيد في العالم الذي يتصف بالكمال نظرا لأنه بقي محتفظا

---

(١٢) A. Hatem: Les souvenirs Syriens à Rome, A.A.S. T. XI-XII, p. 83.

(١٣) من اهم المراجع عن تدمر :
H. Seyrig: Palmyra and the East Journal of Rome Studies, 1950.
J. Starcky: Palmyre, 1952.
J. Starcky & Munajed: Palmyre la fiancée du desert, 1948.
A. Champdor: Les ruines de Palmyre, 1953.

(١٤) سليمان مقداد ــ بصرى ١٩٧٥

بجميع أقسامه عندما أنشئت عليه قلعة اسلامية ٠

ولقد أنشيء هذا المسرح في القرن الثاني وهو مبني من الحجر البازلتي وقطره ١٠٢ م وهو مؤلف من ٢٧ درجة تتسع لعشرين ألف متفرج ، ولقد ازيلت المنشآت التي كانت قائمة فوقه ، وأصبح جاهزا لاستقبال الزوار والاحتفالات الضخمة ، ولعل احتفال عام ١٩٧٤ وما ضم من شهور ملأت أرجاء المسرح كان حدثا في تاريخ هذا البناء ٠(١٥)

وتجري في بصري حاليا حفريات واسعة للكشف عن المنشآت القديمة ، ولقد تم الكشف عن السوق الارضية (الكريبتوبورتيك) وهي رواق تحت الارض بطول ماية وستة أمتار وعرض خمسة أمتار وتضيء هذا الرواق أربعة وأربعون نافذة تعلو محاريب تزينية وكشف أيضا عن الحمامات والفورم والطريق المستقيم والمصلبة والقوس المركزي ٠

أما أفاميا وهي العاصمة الثانية للسلوقيين والتي أصبحت بعد عام ٥٠ ق٠م حاضرة رومانية ، فان أطلالها الرائعة ، وقد نامت باتجاه واحد كأنما بساط سحب من تحتها على حد تعبير أديب سوري ، هذه الحاضرة ما ازلت تبحث عن معين يساعدها للنهوض من كبوتها الطويلة لكي تكشف عن شوارعها وأبوابها وساحاتها ومسرحها العظيم واذا كانت الحفريات والترميمات قائمة منذ عشرات السنين ، فان ذلك سوف يستمر طويلا جدا لأن ما خربته الايام لا تصلحة الا القرون(١٦) ٠

ولقد أصبحت أفاميا ابتداء من القرن الرابع مدينة مسيحية فيها الاديرة والكنائس ٠

لقد استقبل سكان سورية القدماء ، وهم الآراميون العرب ، المسيحية بكثير من القناعة ، ذلك أن الالة (ايل) أوبل أو حدد كان في مفهومة البعيد المدى مصدر الخير والسعادة والحب ، ولم تتضمن المسيحية معان مغايرة سيما وأن الكتاب المقدس قد قدم أخباره وتعاليمه باللغة الآرامية ذاتها ٠ وهكذا انتشرت المسيحية في الرها ودورا وأفاميا وأنطاكية وفي دمشق ، وكان لرسائل القديس بولس الذي انقلب الى المسيحية وسهل له أهل دمشق الهروب ، أهميتها في نقل الديانة الى العالم ٠(١٧)

واعتنق العرب المناذرة ، والغساسنة هذا الدين وأقاموا له الاديرة والكنائس وظهرت الى الوجود حواضر مسيحية كالرصافة ودير سمعان وبصري وازرع ما زالت آثارها قائمة حتى اليوم ٠

أما الرصافة فلقد كانت في العهد الروماني مجرد ثغر ، تحرس القوافل بين دمشق وتدمر وتراقب تحركات الفرس ٠ وفي عام ٣٠٥ ضمت هذه المدينة الصغيرة رفاة سرجيوس الذي أصبح قديسا بعد مقتله في عهد ديوكلسيان ، وحملت اسم سرجيوبولس ٠ (لوحة رقم ١٤ ــ ١) وفي عصر جوستنيان (٥٦٥ ــ ٥٢٧) أخذت المدينة شكلها الحالي ، بأسوارها الحجرية البلورية على شكل مستطيل يبلغ طوله ٥٥٨ مترا وللسور أبراج مختلفة الاشكال والحجوم يبلغ عددها واحدا وخمسين برجا(١٨) ٠

وضمن الاسوار ما زالت تقوم أطلال الكنائس الثلاث الكبرى ، وتعتبر كنيسة القديس سرجيوس من أضخم الكنائس ٥ر٤٣ م × ٢٨ م وفيها كان صندوق الذخائر المقدسة الذي يضم عظام القديس ، وله قناة يجري منها الزيت المقدس يتبرك به المؤمنون ٠

ومن أهم المنشأت الباقية الصهاريج الثلاثة التي بلغ عمق الواحد منها ٥ر٢٤ مترا وبطول ٤٠ مترا يملأ بماء المطر ٠

---

(١٥) د٠ سليم عبد الحق ــ مسرح بصرى وقلعتها ــ الحوليات الاثرية ــ المجلد (١٤) ٠

(١٦) انظر ابحاث بالتي عن افاميا (Apamée) في مجلة الحوليات الاثرية ــ الاعداد ١٧ ــ ٢٠ ــ ٢١ ٠

(١٧) Dussaud: Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, 1955.

(١٨) J. Kollwitz . انظر مقالات كولويتز عن الرصافة في الحوليات السورية الاعداد ٤ ــ ٨ ــ ١٤

منذ القرن الخامس الميلادي وبعد أن استقرت المسيحية التي انتشرت بين سكان سورية ، انتشرت ظاهرة التنسك والتقشف وكان على الرهبان أن يعتكفوا في صوامعهم أو في رؤوس الجبال والمغاور أو على أعمدة كما تم بالنسبة لسمعان العمودي القديس الذي عاش على عمودة مدة تقارب الاربعين عاما ، في المنطقة التي كانت تسمى جبل ليلون أو جبل البيلوس وتمتد من سلوقية الى بيلوم (أي جسرالشغور) الى كالسيس (أي قنسرين) وتضم جبل الاربعين وباريشا والاعلى وجبل سمعان ومدنا أخرى تعرف اليوم باسم المدن البائدة لهجرانها ، ولم يبق منها الا أطلال تدل على روعة المنشآت المسيحية في عهد سمعان العمودي وبعده حتى القرن السادس .(١٩)

وكان سمعان العمودي القديس الورع المتقشف موئل الناس من كل حدب فقد ذاع صيته حتى وصل فرنسا ، وعندما توفي وهو في السبعين من عمره نقل رفاته الى أنطاكية ثم نقل الى بيزنطة ضمن كنيسة فخمة خاصة ، وبتأثير من دانيال العمودي أنشئت كنيسة في مدينة تلانيسوس التي تسمى اليوم قلعة سمعان في عهد زينون ، ولقد كلفت بناءها أموالا طائلة وأتى البناء رائعة لانظير لها ما زالت أطلالها تشهد على ذلك ، وهي مؤلفة من الكنيسة والدير والقبر والمعمودية وملحقاتها ولقد أنشأها معماريون سوريون يدفعهم الورع والرغبة بتمجيد هذا القديس . واستمر بناء هذه المجموعة المعمارية أربعة عشر عاما وانتهى عام ٤٩٠ م وتعتبر مفخرة العمارة السورية ، بل المسيحية كلها في العالم ، وفي ذلك الوقت . (لوحة رقم ١٤ ـ ٢) .

ان الفترة الاسلامية من تاريخ سورية العريق تبقى أطول الفترات وأهمها ، ولقد تركت هذه الفترة الزاهرة آثارا رائعة . ويبقى الجامع الاموي ، أكمل الاوابد الاسلامية وأقدمها ، شاهدا على أهمية دمشق كأول عاصمة اسلامية لأكبر دولة عربية في التاريخ .

والجامع الاموي الذي أنشأه الوليد بن عبد الملك أقيم على رقعة مقدسة كانت كنيسة استمر المسلمون يقيمون صلاتهم فيها مع المسيحيين منذ فتح دمشق ، ثم فاوض الوليد المسيحيين على تخصيصها للمسلمين مقابل السماح بانشاء ثلاثة كنائس . وقبل أن تنشأ الكنيسة كان المكان مخصصا لمعبد جوبيتر في العصر الروماني ، ما زالت آثاره بادية حتى الآن ، وقبل ذلك كان هذا المكان معبدا لحدد الآرامي .(٢٠)

ان هذا المسجد الكبير الذي وضع المخطط الاساسي للمساجد الاسلامية ، وحفل لأول مرة بصورة جدارية فسيفسائية رائعة ، لعلها تذكر بأحلام المسلمين بالجنة والفردوس الموعود ، يبقى واحدا من أروع المنشآت الاسلامية .

أما القصور الاموية ، كقصر الحير الغربي الذي أنشأه هشام بن عبد الملك في البادية جنوبي تدمر ، فانه يبقى من روائع العمارة الاسلامية الاولى التي انطلقت من مباديء فن المناذرة في الحيرة ، ولكنه استمد من الزخارف والفنون القائمة في ذلك الوقت وهي الفنون الساسانية والبيزنطية . ولكنها أخذت طابعا جديدا هو بداية للفن الاسلامي . ويبدو ذلك جليا في زخرفة واجهة هذا القصر ، التي نقلت الى المتحف الوطني بدمشق .(٢١) (لوحة رقم ١٤ ـ ٣) .

لقد كان عصر هشام بن عبد الملك ٧٢٤ ـ ٧٤٣ عصر ازدهار معماري كبير فلقد أنشأ في بلاد الشام عددا من القصور ، منها قصرا الرصافة وقصرا الحير الشرقي وقصر الحير الغربي ويتحدث المؤرخون عن قصرين لهشام مقابل الرقة وقصر في دمشق وقصر في مرج الصفر جنوبي دمشق . عدا قصر المفجر وغيره في فلسطين والاردن .

(١٩) G. Tchalenko: Villages Antiques de la Syrie du Nord.

(٢٠) علي الطنطاوي ـ الجامع الاموي .

(٢١) عفيف بهنسي ـ القصور الشامية في العهد الاموي ـ الحوليات ١٩٧٥ .

واذا انتقلنا الى عصور اسلامية لاحقة فان قلعة حلب لتي أعيد ترميمها وأضيف اليها كثير من المنشآت في العهد الايوبي ، تبقى مفخرة القلاع الاسلامية ، ولقد أقيمت هذه القلعة على مرتفع صخري وكانت موقع معابد للاله حدد الآرامي والاله تيشوب الحثي وزفس اله الاغريق ، ثم أصبح المكان أكروبول المدينة في العهد الاغريقي . وعندما استولى العرب المسلمين على القلعة ، جعلوا القلعة حصنا لحماية السلطة ، وفي العهد الايوبي أنشأ الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين أقساما كثيرة في القلعة ورمم أقساما أخرى ، وحفر خندقها وكسى سفحها بالحجارة وشيد في داخلها مسجدا كبيرا وقصورا ، وعاش في القلعة مع زوجة ضيفة خاتون التي دفنت في القلعة بعد موتها .(٢٢)

وشكل القلعة اهليجي وهي محاطة بسور ذي أبراج مربعة أو مستديرة والبرج الاول يتضمن المدخل الرئيسي يعلوه قاعة العرش التي أعيد تزيينها مؤخرا . وفي القلعة مسجد ابراهيم الخليل ، أنشيء كما يقال في موقع كان ابراهيم قد أقام فيه عندما جاء من حران الى حلب . بالاضافة الى مسجد آخر وحمامات وأسواق وأقبية وخزانات وسجون .

وليست قلعة دمشق بأقل أهمية ، بل انها تمتاز بوقوعها على مستوى سطح الارض وهي تقع في الزاوية الشمالية الغربية من سور دمشق القديمة ولقد كانت القلعة قائمة كتحصينات منذ السلاجقة والاتابكة ولكن الملك العادل أخا صلاح الدين هو الذي أمر بتشييدها على الشكل الحالي منذ مطلع القرن السابع الهجري وقبله أقام فيها صلاح الدين في برج خاص وصلى عليه فيها بعد موته .

والقلعة كما أنشئت في عهد الملك العادل تقوم على مستطيل ٢٢٠ × ١٦٠ في غربه القصر والحي الملكي ، وفيها كان برج لطيور البريد ودار لسك العملة ومصنع للسلاح وسجن وسوق وحمام وعدد من المساجد ، وكانت القلعة مركز الدولة وقيادة الجيش ، محاطة بأبراج وأبواب ضخمة .

ثم خرب قسم من القلعة على يد هولاكو ، ومن ثم أعيد ترميمها في عهد المماليك وأصبحت مركز الحاكم أو نائب السلطنة .(٢٣)

ان الحديث عن الحضارات التي تعاقب على بلاد الشام حديث طويل ، واذا تمكنا في هذه العجالة من عرض نماذج بارقة من هذه الحضارات فان ذلك لا يغني عن التذكير من أن كل فترة من فترات تاريخ الحضارة في هذا القطر ، تحتاج الى مجلد خاص ، ونحن ما زلنا ننادي بكتابة تاريخ الحضارة في هذا القطر وفي الاقطار العربية الاخرى هذا التاريخ الذي لم يكتب بعد .

الدكتور عفيف البهنسي
المدير العام للآثار والمتاحف
في الجمهورية العربية السورية

(٢٢) فيصل الصيرفي ـ قلعة حلب .

(٢٣) عبد القادر ريحاوي قلعة دمشق ـــ مخطوط دراسة موسعة ـ تحت الطبع .